فداموا على ذلك شهوراً ثمَّ أُزيل بجرَّد تسلُّط العوامّ عليهم وطمع الجهَّال فيهم . وتقدم السلطان باخذ دار علاء الدين الطبرسي (sic) الدويدار الكبير من النصارى فانها كانت بايديهم من حيث مُلكت ببغداد وأُزيل ما بها من التماثيل والخطوط الرسانيَّة واستُعيد الرباط الذي تجاه هذه الدار المعروف بدار الفلك وكان قد جعلهُ النصارى مدفناً لاكابرهم فأُزيلت القبور منهُ وصار محلًّا للوعظ

النصرانيَّة وآدابها بين عرب الجاهليَّة

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

الفصل التاسع

التعاليم الفلسفيَّة واللاهوتيَّة بين نصارى الجاهليَّة

اثبتنا في مقدَّمة ابحاثنا عن النصرانيَّة وآدابها في عهد الجاهليَّة انَّ العرب كانوا مشركين كبقيَّة الامم ما خلا الشعب الاسرائيليّ وانَّهم عبدوا الاصنام قبل التاريخ المسيحي وفي القرون الاولى بعدهُ وان اختلف شركهم بعض الاختلاف في جنوب جزيرتهم وشمالها وغربها

امَّا الآثار المتأخرة الباقية من القرن السادس واوائل السابع المسيح فعلى خلاف ذلك فانَّها الى التوحيد اقربُ منها الى الشرك بل لا تكاد تجد في الشعر الجاهليّ المجموع في ذلك العهد اثرًا للشرك اللهمَّ الَّا بقايا قليلة لا يُعبأ بها

وعندنا انَّ هذا الانقلاب انَّما كان سببهُ شيوع النصرانيَّة في ظهراني العرب كما بيَّنَّا ذلك بالشواهد المتعدِّدة في القسم الاوَّل من كتابنا . واذا تقصَّينا البحث في ما

خلفوه من الآثار وجدنا فيها من المبادئ الفلسفيَّة والتعاليم اللاهوتيَّة ما هو دليل لامع على قولنا

الفلسفة النصرانية في عرب الجاهلية

ليس احدٌ من قرَّائنا ينتظر منَّا ان نعدَّد لهُ ما وضعهُ نصارى العرب في الجاهليَّة من التآليف الفلسفيَّة فانَّ اهل الجزيرة قبل الاسلام وبعدهُ لم يشتهروا مطلقاً في النظريَّات اذ كان همُّهم الاعظم ان يعيشوا في مواطنهم عيشةً فطريَّة لا يزعجها ضنك الفكر ولا يخالطها التعمُّق في غوامض الكون . وان قيل لنا ألا تُحصي بين كبار فلاسفة العرب الرئيس ابن سينا والفارابيَّ وابن رشد اجبنا انَّهم اعاجم ليسوا عرباً . وان وُجد بينهم افراد احرزوا لهم ذكرًا في ذلك كالكندي فانَّهُ من باب الشذوذ

لكنَّ الفلسفة لا تظهر فقط في المؤلَّفات النظريَّة بل ربَّما ظهرت في مطاوي الكلام نثرهِ ونظمهِ حيث تلوح المبادئ التي يجري المرء بموجبها ويرتشد بنورها وذلك خصوصاً في فروعها الثلثة اعني بها علم الاله ثمَّ علم النفس ثمَّ علم الآداب والحقوق وكل ذلك متوفر في آثار الجاهليَّة كما سترى

﴿ ١ علم الاله الحقّ ﴾ يُثبت الفيلسوف بالبراهين العقليَّة وجود الله ووحدانيَّتهُ وخلقهُ للعالم وصفاتهِ الحسنى من قداسة وحكمة وعلم وقدرة وعدل وعناية بالمخلوقات وهذا كلُّهُ تجدهُ في شعراء الجاهليَّة الذين روينا اقوالهم في القسم الثاني (ص١٥٨ — ١٦٢) كقول زيد بن عمرو :

الى الله أهدي مدحتي وثنائيا وقولاً رصيناً لا بني الدهرَ باقيا
الى الملك الاعلى الذي ليس فوقهُ إلهٌ ولا ربٌّ يكون مدانيا
رضيتُ بك اللهمَّ ربًّا فلن أرى ادينُ الهاً غيرك الله ثانيا

وكقول قس بن ساعدة خطيب العرب :

الحمدُ لله الذي لم يخلقِ الخلقَ عبثْ

وكقول ورقة بن نوفل :

ادينُ لربٍّ يستجيبُ ولا أرى ادينُ لمن لا يسمع الدهرَ واعيا
اقول إذا صلَّيتُ في كل بيعةٍ تباركتَ قد اكثرتُ باسمك داعيا

وكقول عبد القيس بن الخفاف (المفضليات ص ٢٥٠ Lyall . ed) :

اللهَ فاتقوا وأوفوا نذره واذا حلفت ممارياً فتحللوا

وكقول طرفة (شعراء النصرانيّة ٣١٩) :

لتُنقَبَنْ منّي اليه انّ م الله ليس لحكمه حكمُ

وكقول سويد بن ابي كاهل :

انّما يرفع الله ومن شاء وضع

وكقول حاتم الطائي :

كلوا اليوم رزق الإلهِ وأيسروا فانّ على الرحمن رزقكم غدا

واقوال كثيرة لاميّة بن ابي الصلت ولا سيّما دالّيته العجيبة التي اوّلها :

لك الحمدُ والنعماء والفضلُ ربنا فلا شيء اعلى منك مجداً واسعدُ

وفيها يقول :

هو الله باري الخلق والخلقُ كلهُ إماؤه لهُ طوعاً جميعاً واعبدُ

أُعجب بها نبيُّ الاسلام فقال لما سمعها من الشريد بن سويد : لقد كاد اميّة ان يُسلم بشعره (اطلب حياة الحيوان للدميري ٢ : ١٩٥)

فهذه واقوال غيرها كثيرة تثبت انّ العرب في الجاهليّة عرفوا الاله الحقيقي ولا شكّ بانّ هذه المعرفة اتتهم من مبشّرين نصارى سبق لنا ذكرهم في تاريخ النصرانيّة بين العرب (القسم الاوّل)

﴿ ٢ علم النفس ﴾ كان لقدماء العرب قبل ان يستنيروا بنور الانجيل اراء باطلة في النفس واصلها ومصيرها فيهيمون بتراءيهم في كل وادٍ . فلمّا هداهم الله الى الحقّ عدلوا الى ما هو اقرب الى الصواب فأقرّوا بخلود النفس وحرّضوا على تقي الله وممارسة الاعمال الصالحة واشاروا الى ما ينتظر النفسَ من الحساب يوم الدين فتجازى عن اعمالها ثواباً او عقاباً . وهذا كلّهُ بجمل ما يُستفاد من التعاليم الفلسفيّة . فدونك بعض الشواهد على قولنا . اوردنا في شعر عديّ بن زيد (ص ٢٥١) ما قال في تصوير الله للانسان ونفخهِ فيهِ من روحهِ . ولطرفة قولهُ في عقل الانسان (شعراء النصرانيّة ص٣١٧) وما خُصَّ بهِ من الادراك :

لفتى عقلٌ يعيشُ بهِ حيث تهدي ساقهُ قدمُهُ

وقد ميّزوا بين الروح الخالدة والجسد الفاني كقول ذي الرمة مستغيثاً :

يا نازعَ الروحِ من جسمي اذا قُبضَتْ وفارج الكربِ أنقذني من النارِ

واشاروا الى وقوف النفس امام الديّان وادائها الحساب عن اعمالها والى جزائها خيراً او شراً على موجب سلوكها . قال الحارث بن عبّاد (شعراء النصرانيّة ٣٧٠) :

كلُّ شيءٍ مصيرُهُ للزوالِ غيرَ ربي وصالحِ الاعمالِ

وقال مرّة بن ذُهل في مراقبة الله لاعمال البشر (فيه ص ٢٤٨) :

اللهُ للأقوام بالمرصادِ

وقال طرفة (فيه ٣١٧) :

وكيف يرجي المرءُ دهراً مخلّداً واعمالهُ عمّا قليلٍ تغالبُهْ

وقال اميّة بن ابي الصلت (القسم الاوّل ص ١٦٨) :

يوقف الناس للحساب جميعاً فشقيٌّ معذّبٌ وسعيدُ

وقال عديّ بن زيد :

أعاذلَ من تُكتَبْ لهُ النارُ يلتَها كفاحاً ومَنْ يُكتَبْ لهُ الفوزُ يسعَدِ

ومثلهُ لزهير في معلقته :

فلا تكتُمُنّ اللهَ ما في صدوركم ليخفى ومهما يُكتَمِ اللهُ يعلَمِ
يؤخّر فيوضع في كتابٍ فيُدّخرْ ليوم الحساب او يعجّل فينقَمِ

وللبيد ايضاً :

وكلّ امرئٍ يوماً سيُعلَمُ سعيهُ اذا كُشفَتْ عند الالهِ المحاصلُ

وكأنّ حاتماً الطائي (شعراء النصرانيّة ١٢١) نظم آية الكتاب «من يُعطِ الفقير يقرض الربّ» بقوله :

ولكنّما يبني بهِ اللهَ وحدَهُ فأعطِ فقد أُربِحتَ في البيعةِ الكسبا

واقوال عديدة مثلها تنطق بمعرفتهم لاحوال النفس والمعاد . وقد ذكرنا سابقاً

(ص ٣٢) كيف ردَّ العلّامة اوريجانس بعض المبتدعين من العرب عن ضلال سقطوا به في امر النفس اذ زعموا انها تفنى كالجسد ثمَّ تُبعث معهُ في الديمونة

(٣ علم الآداب والحقوق) مرجع هذا العلم أن يُعطى كلُّ ذي حقٍّ حقَّهُ مع مراعاة الاحوال والمقامات من رؤساء ومرؤوسين وافراد وجماعات الخ . وبديهيٌّ ان احوال اهل البادية تختلف عن احوال سكّان المدن وسُنَنهم عن سُنَنِهم . ولشعراء الجاهليّة تأييدًا لهذه المبادئ الصحيحة اقوال لا تُحصى جمعها القدماء فنحيل اليها . منها حماسة البحتري الذي نشرناه منذ عهد قريب . قسمهُ جامعهُ على ١٧٩ باباً تتناول معظم الآداب والاخلاق التي يتباحث بها الفلاسفة فيثبتون وجوبها وقوانينها وفقاً لتعاليم العقل واحكامه المصيبة . انظر مثلاً ما يقولهُ الافوهُ الاوديّ في النظام السياسي وحكم ارباب الامر (شعراء النصرانيّة ص ٧٠) :

لا يصلح الناس فوضى لا سَراةَ لهم ولا سراة اذا جُهّالُهم سادوا
تُهدى الامورُ باهل الرأي ما صَلَحَتْ فان تولّت فبالاشرار تَنقادُ
اذا تولّى سراةُ الناس امرَهمُ نما على ذاك امرُ القوم فازدادوا

وهذا النابغة الذبياني يعزو الى الله سلطة الملوك حيث يقول للملك النعمان (شعراء النصرانيّة ٦٥٦) :

ألم ترَ انَّ الله أعطاك سُورةً ترى كلَّ مَلكٍ دونها يتذبذبُ

وكلُّ اديبٍ يعرف خاتمة معلّقة زُهير وما في ابياتها الاخيرة من الحكم المبنيّة على علم الاخلاق والآداب الاجتماعيّة . ومثلها في معلّقة الحارث بن الحلّزة . ولطرفة يطالب بحقوق امّه وردة (شعراء النصرانيّة ٦٩٨) :

ما تنظرونَ بحقِّ وردةَ فيكمُ صُمُّ البنونَ ورهطُ وردةَ غُيَّبُ
قد يبعثُ الامرَ الظلومَ صغيرُهُ حتّى تظلَّ لهُ الدماء تصبَّبُ
قد يوردُ الظلمُ اللبيبَ آجنًا يلحًا يُخالَطُ بالدعافِ ويُشرَبُ
والاثمُ داءٌ ليس يُرجى بُرؤهُ والبِرُّ بُرءٌ ليس فيهِ معلَبُ
أدُّوا الحقوقَ تُغفَرْ لكم أعراضُكمُ انَّ الكريمَ اذا يُحرَبْ يغضَبُ

فهذه كلُّها اقوال من الفلسفة العقليّة ابرزها عرب الجاهليّة في صورةٍ شعريّة

٢ التعاليم اللاهوتيّة بين نصارى الجاهليّة

اللاهوت كما هو معلوم اساسهُ الوحي سواء كان مدوّناً في الاسفار المقدّسة ام

شاذماً بتعليم الكنيسة . وقد عرف نصارى العرب الوحي وكتبهُ وانبيّتهُ الانبياء والرسل كما اثبتنا ذلك في الفصول السابقة (ص ١٧٩ — ١٩٠) . مثل قول الراهب وَرَقة بن نوفل :

وجبريلُ يأتيهِ ومِيكالُ معهما من اللهِ وحيٌ يشرحُ الصدرَ مُنزلُ

وقد ورد هناك ذكر التوراة والزبور والانجيل وبعض الانبياء والرسل كموسى وداود وسليمان ويونان . ومما اخذوهُ عن الوحي معلومات عديدة عن الله جلّ جلالهُ كتوحيدهِ وصفاتهِ العاليّة . فانَّ منها ما يُستدلُّ عليهِ بالوحي اكثر من القياس النظريّ والبرهان العقليّ . فايُّ فيلسوف مثلاً وصفهُ تعالى كما فعل امية بن ابي الصلت حيث قال :

لكَ الحمدُ والنَّعماء والملكُ ربَّنا فلا شيءَ اعلى منكَ مجداً واحمدُ
مليكٌ على عرشِ السماء مُهيمنٌ لعزَّتهِ تعنو الوجوهُ وتسجُدُ
عليهِ حجابُ النورِ والنورُ حولهُ واطارُ نورٍ حولهُ يتوقَّدُ
مليكُ السماواتِ الشدادِ وارضها وليس لشيءٍ عن قضاهُ تأوُّدُ الخ

وهو الوحي قد انبأهم بوجود الملائكة واوقفهم على مقامهم وجوهرهم وخدمتهم امام الله وطبقاتهم فذكروا منهم باسمائهم جبرائيل وميكائيل ومن طبقاتهم السرافيل (الساروفيم) والكروبيّة (الكروبيم) والملائكة الحرّاس (راجع الصفحة ١٦٤ — ١٦٧)

وقد افادهم الوحي تكوين الله للعالم من العدم وابداعهُ للكائنات جمادها ونباتها وحيوانها ثمَّ خلقهُ للابوين الاوّلين ووضعهما في جنَّة عدن ثم سقوطهما بتجربة ابليس ونفيهما من الفردوس ثم ما جرى لهما ولنسلهما ولا سيما بوقوع الطوفان . فكلُّ هذه الامور التي اثبتناها بالنصوص المتعدّدة لم يعرفها العرب الّا بواسطة الوحي (راجع الصفحة ٢٥٤ — ٢٦٦)

ومن الوحي استفاد العرب ايضاً معرفة امور الآخرة كالنعيم في السماء للابرار والجحيم في جهنَّم للاشرار وبعث الاجساد في آخر العالم . وقد اتينا على كلّ ذلك بشواهد متعدّدة لا تبقي في الامر ريباً (اطلب الصفحة ١٦٣ — ١٦٤ و١٦٧ — ١٧٠)

ومما توفّق العرب الى معرفته بفضل الوحي سرُّ بشارة الملاك جبرئيل لمريم العذراء

وبقاء مريم على بتوليّتها مع ولادة ابنها . وعرفوا السيّد المسيح ورسالته الى العالم وما اتاهُ من المعجزات واختيارهُ لرسله الحواريين ودعوهُ بأبيل الأبيلينَ المسيح بن مريما وانهُ هو الذي سيدين الاحياء والاموات (ص ١٨٦ — ١٩٠) وذكروا السابق امام وجههِ يوحنّا المعمدان ودعوهُ يحيى

وقد عظّم عرب الجاهليّة تعليم المسيح ونعتوا دينهُ بالدين القويم كما قال النابغة عن نصارى غسّان :

بحلّتهم ذاتُ الإله ودينهم قويمٌ فما يرجون غير العواقبِ

وقد عرف العرب كنيسة المسيح وما فيها من رؤساء كالبطاركة والاساقفة والقسوس والشمامسة ولا سيّما الرهبان والنسّاك (ص ١٩٠ — ٢٠١)

وكذلك اطّلعوا على اسرار الكنيسة كالمعموديّة والقربان والقدّاس وعلى اعيادها كالسبّار (البشارة) والدنح (الغطاس) والياسب (الشعانين) والفصح والسلّاق (الصعود) (ص ٢٠٨ — ٢١٠ — ثمّ ٢١٤ — ٢١٨)

وعرفوا متاسك النصرانيّة وكنائسها وهياكلها وما تزان بهِ من النقوش والصور وخصوصاً الصليب فحلفوا بهِ كقول عديّ بن زيد :

حمى الاعداء لا يألون شرًّا عليك وربّ مكّةَ والصليبِ

وقد حلف الآخر بالقربان ودعاهُ الشَّبَر

الحمد لله الذي أعطى الشَّبَرْ

ومثلهُ عديّ :

اذ أتاني خبرٌ من مُنذِم لم أُخنهُ والذي أعطى الشبرْ

وحلف الاعشى بالرهبان الساجدين وبالناقوس فقال :

اني وربّ الساجدين عشيّة وما سكّ ناقوسَ النصارى ايلُها
أصالحكم حتّى تبوّدا بخالها كصرخة حُبلى اسلمتها قبيلُها

فهذه كلُّها ادلّة اوضح من النور تبيّن ما كان للتعاليم اللاهوتيّة من النفوذ بين نصارى العرب استخلصناها من الشعر الجاهليّ فقط وهي احسن برهان على نفوذ الآداب النصرانيّة بينهم

(له بقيّة)